

جدلية العلاقة بين الأنا والآخر في الخطاب الإعلامي الغربي

The Dialectic of The Relationship Between the Ego and The Other in The Western Media Discourse

أ. د. سعد عبد السلام

جامعة زيان عاشور
الجلفة
الجزائر

saadibnhazm@gmail.com



جدلية العلاقة بين الأنا والآخر في الخطاب الإعلامي الغربي

أ.د. سعد عبد السلام

ملخص:

شهد التاريخ المعاصر أمثلة مروعة على استخدام الدعاية الإعلامية الغربية للعنف والكراهية مما أسفر عن آثار مدمرة للبشرية، فقد قام إعلام حكومات الدول الغربية، بدعم "الاستدمار" الغربي الذي احتل دولاً ومارس عمليات قتل وتشريد، وأحدث إبادة جماعية في دول شتى في أنحاء العالم، دول عربية وإفريقية وآسيوية وغيرها، ويتسبب تواطئه الآن في حدوث مجازر شتى خاصة في فلسطين والسودان واليمن وسوريا... إذ كان لوسائل الإعلام الغربية الدور البارز فيه، ومع ذلك يكون مستغرباً ومدعشاً بل ومضحكاً، أن ترى بعض الإعلاميين ينكرون وجود خطاب كراهية في وسائل الإعلام الغربي، أو على الأقل مساهمتها في نشره ويزعمون الموضوعية والحيادية والتزاهة، بل ويتضاعف عدد قنوات التواصل وتضخمها أضحت أشكالاً لكراهية منتشرة في مختلف أنظمة التواصل التناظرية والرقمية على حد سواء، وبتزايد عدد المتصلين بشبكة الإنترنت ووسائل التواصل الأخرى، أضحت هذه المنصات قنوات تواصل حيوية لصناعة الكراهية ونشرها. ومن ثمة كانت هذه الورقة البحثية، لفهم جدلية العلاقة بين الأنا والآخر في الخطاب الإعلامي الغربي.

الكلمات المفتاحية: الإعلام، خطاب الكراهية، وسائل التواصل، الأنا، حرية التعبير، الآخر.

Abstract:

Contemporary history is witnessing horrific examples of the use of Western media propaganda of violence and hatred, which results in destructive effects of humanity; What the Western media did to support the Western destruction of the countries it occupied, killed and displaced their children, and the genocide in Rwanda, Bosnia and others, and what is happening now of special massacres in Palestine, Sudan, Yemen and Syria ... The media had a prominent role ... However, it is surprising, amazing and even funny, to see some media people deny the existence of a hate speech in the Western media and even the Arab, or at least its contribution to its spread! They claim objectivity, impartiality and integrity. With the multiplication and inflation of the number of communication channels, the forms of hatred have become widespread through the various analog and digital communication systems alike, and by the increase in the number of callers on the Internet and other means of communication, these platforms have become vital communication channels for the manufacture and dissemination of hatred; From there, she requests research in the dialectic of the relationship between the ego and the other in the Western media discourse.

Keywords: Media, hate speech, means of communication, ego, freedom of expression, the other.

1- مقدمة:

تبحث هذه الورقة في طبيعة الخطاب الإعلامي الغربي، إذ تركز وسائل التواصل الاجتماعي خطاب الكراهية وتساهم في نشره، وقد جعل الفضاء الإلكتروني الذي أوجد حرية مطلقة بلا ضوابط أخلاقية ولا قوانين رادعة أبواب تلك المواقع مشرعة وتتسع لكل من يغذي الكراهية، وقد ساهم التطور التقني لوسائل الإعلام بصورة كبرى في تفشي هذه الظاهرة، حيث تم استقطاب شرائح متزايدة للانضمام إلى جيوش عصرية مسلحة بالحقد والكراهية لخوض معارك الاقتتال في الفضاء الإلكتروني الواسع، فاجتاح اليوم جميع دول العالم ما اصطلح عليه بـ"خطاب الكراهية" وواجهت الدول مستويات معقدة من ألوان الانتشار الواسع لهذه الظاهرة التي أنتجت بوتقة الشر، وسوقتها وسائل الاتصال المعاصرة، بل وزادتها قدرة على النمو والانتشار. ومع تآجج جذوة الوجود المتنامي للكراهية على منصات التواصل الاجتماعي، لاسيما أثناء الأزمات، زاد انتشار خطابها، وهو ما آل إليه الحال في مجتمعنا المعاصر لذا تتحمل وسائل الإعلام مسؤولية رئيسة في بثه، وكثيرا ما تقوم هذه الوسائل بإعادة نقله وتدويره مستغلة ذلك تحت شعار حرية التعبير التي تصونها القوانين الدولية. هذه القوانين التي تزيد تحت غطاء الإعلام المتخصص في صنع الكراهية ونشرها في ظل غياب شبه تام للإعلام المهني.

ومن الجلي أن الإنترنت صارت مرتعا خصبا لخطاب الكراهية بسبب ما توفره هذه الشبكة من إمكانيات النشر باسم مستعار أو مجهول، وتفشيته يكشف عن قصور كبير في التعامل مع المفاهيم العالمية المنتشرة عبر وسائل الإعلام، لذا كان من اللازم التصدي لهذا الخطاب في معركة أخلاقية بامتياز، لأن الإنترنت شبكة معقدة تهيمن فيها علاقة أساسية هي علاقة "الأنا" و"الآخر" لا علاقة "آخر" بـ"آخر". "الأنا والآخر" الذي ينتمي أصلا إلى الفكر الغربي، ولنتساءل: ما هو المعنى الذي يعطيه هذا الفكر لهذا المفهوم؟

وهذا الموضوع يفجر تساؤلات عديدة منها: ما طبيعة الثقافة التي ينتجها هذا الخطاب الإعلامي الغربي؟ وهل يمكن احتواء بث سموم خطاب الكراهية المتداول عبر وسائل الإعلام ومنصات التواصل بمواثيق الشرف الإعلامية؟ وهل هي ثقافة تفاعل إيجابي قائمة على التسامح والحوار والتبادل بين الأنا والآخر، أم أنها ثقافة إقصاء وكراهية؟ وما ضوابط معالجة ازدواجية معايير وسائل الإعلام في خلطها بين خطاب الكراهية وحرية التعبير؟

2- جدلية العلاقة بين الأنا والآخر:

تختلف علاقة الأنا بالآخر وتأخذ عدة مستويات، تحددها عدة أشياء، منها: زاوية الرؤية التي ترى بها الأنا الآخر، وتموضع الأنا بالنسبة إلى الآخر، وموقع الآخر من حيث الهيمنة والتسلط، والمصالح التي تحكم كل منهما، ومساحة الحوار التي يمكن أن تنشأ بينهما. وفي هذا الإطار يمكن استدعاء المقاربة الديكارتية التي تجعل من الأنا وعيا متعاليا لا يشترط الآخر وجوديا ومعرفيا، وقد سبق وأشارنا إلى مقولة سارتر "الآخر هو الجحيم"، وهذه النظرة أنتجت بنية فكرية أقصت الآخر وأعدت إنتاج التراث الجمعي للأنا، وبسبب هذه النظرة العدائية تنتقل العلاقة بينهما من مرحلة التعايش والسلام إلى مرحلة العدوان والصراع الجدلي.

يطول بنا الحديث ويتشعب لو أننا حاولنا تتبع فكرة "الأخر" في الفكر الأوروبي الذي يتمحور كله حول هذه الفكرة، من ديكارت إلى هيجل إلى سارتر وماركس ومن جاء بعدهم. ولنقتصر إذن، على إشارات مقتضبة من هنا وهناك، لا يكون الهدف منها استقصاء الموضوع، بل مجرد إثارة الانتباه. وغني عن البيان القول إن: لفظ "الأنا" في العربية المعاصرة إنما هو ترجمة لمعنى Le même بالفرنسية و Ego بالإنجليزية والألمانية، وكلمة Ego لاتينية تدل على ما تدل عليه كلمة "ذات" في اللغة العربية حينما يقصد بها الشخص المتكلم. ومن هذه الكلمة اشتقت مصطلحات أخرى مثل: Egoцентризм وهو ما نترجمه اليوم بـ "التمركز حول الذات"، ومنها Egoïsme بمعنى "الأناية" في الاستعمال اللغوي العام.

أما في الاصطلاح الفلسفي فتدل على المذهب الفلسفي الذي يعتبر وجود الكائنات الأخرى غير "الأنا" موجودات وهمية أو موضوعات شكلية على الأقل. ومن هنا أتت المذاهب الفلسفية المثالية Idéalismes التي لا تعترف بأي وجود آخر غير تمثيلات الأنا، فالعالم هو ما أتمثله وأتصوره أنا، وليس ثمة وجود آخر غيره. من هنا يتضح أن مفهوم "الأنا" مبني على السيطرة؛ سيطرة الذات على ما تتخذه موضوعا لها، سواء كان هذا الموضوع طبيعة أو إنسانا أو... ومن خلال هذا التصور لـ "الأنا" كمبدأ للسيطرة، يتحدد موقع "الأخر" ودلالته في الفكر الأوروبي، أي بوصفه موضوعا للسيطرة، أو عدواً في قواميس الفكر الغربي ومصطلحاته الفلسفية، فـ "الأخر" هو أحد المفاهيم الأساسية للفكر، ويقال في مقابل "الذات" Le même أو "الأنا"؛ أما هذه الأخيرة (الذات)، فلا معنى لها سوى أنها المقابل لـ "الأخر" L'Autre تقابل تعارضي وتضادي، أو أنها المطابق لنفسه المعبر عنه بـ Identité وهو ما نترجمه بلفظ "الهوية" أو "العينية"، أي كون الشيء هو هو: أي عين نفسه.

فالغريبة في الفكر الغربي، مقولة أساسية مثلها مثل مقولة الهوية، وفي هذا الصدد فإن كلمة: Altérité أي الغريبة، ذات علاقة اشتقاقية من الفعل Altérer والاسم Altération وتعنيان تغيير الشيء وتحوله إلى الأسوأ مثل لفظ: (تعكر، استحالة، فساد)، كما ترتبطان اشتقاقاً بكلمة Alternance التي تفيد التعاقب والتداول، ومعنى ذلك أن مفهوم "الغريبة" Altérité في الفكر الغربي ينطوي على السلب والتفي؛ بل يمكن القول إن ما يؤسس مفهوم الغريبة في الفكر الغربي؛ ليس مطلق الاختلاف كما هو الحال في الفكر العربي، بل إنها في الفكر الأوروبي مقولة فلسفية تؤسسها فكرة "السلب" أو النفي La négation، فـ "الأنا" لا يفهم إلا بوصفه نفيًا وسلباً لـ "الأخر".

3- تعريف خطاب الكراهية:

مصطلح "خطاب الكراهية Hâte speech" مصطلح إشكالي، إذ لا يوجد له تعريف موحد ولا معنى محدد حتى يتم اعتماده عالمياً، لذا فالكراهية لغة: حقد وشعور بالضغينة تجاه شيء ما، وكل كلام يثير مشاعر الكره، وينادي ضمناً أو علناً بإقصاء فرد أو أفراد إمّا بالطرد أو الإفناء... كما ينطبق على كل خطاب أو عمل أو قول علني أو تعبير استعلائي يحرض على العنف أو يمهّد له، هو خطاب كراهية. (زهرة، 2014م)

ورغم ما حظي به موضوع خطاب الكراهية من اهتمام بالغ من الناحية القانونية، إلا أن هذا الاهتمام انحصر في تقديم الحجج وتقييمها لدحض مبرراته، بدلا من تحليل المصطلح نفسه، ويبدو أن الوصول إلى

تعريف شامل لهذا المصطلح أضحى أمراً صعباً ومعقّداً، نظراً لاشتماله على مفاهيم متشعبة، ولم يتم تناول هذا المصطلح صراحةً في الموثائق الدولية، إلا من باب حظر أشكاله أو شجبهه فحسب، وتؤكد النصوص القانونية والاصطلاحية، أن خطاب الكراهية مصطلح حقوقي فضفاض قصد به تلك: "الأنماط المختلفة من أنماط التعبير العام التي تنشر الكراهية، أو التمييز أو تحرض عليها وتروّج لها، ضدّ شخص أو مجموعة ما من حاملي صفات معيّنة، فكلّ خطاب يعبر عن مواقف متحيّزة، اتّجاه جنس أو عرق أو دين أو رأي سياسي، أو أيّ عامل آخر... فهو خطاب كراهية، وهنا تكمن خطورته، خاصّة إذا وجدت منابر إعلامية، أو وسائل اتّصال تروّج له وتزيد من انتشاره. (اليونسكو، ب 2015) ومن ثمة انتشرت مصطلحات مثل: الإسلاموفوبيا Islamophobia ورهاب الأجانب Xénophobie وغيرها ...

4- تجليات خطاب الكراهية في وسائل الإعلام الغربية:

تثبت الوقائع والمعانيات أنّ وسائل الإعلام تكرّس خطاب الكراهية، وتتحمّل مسؤولية رئيسية في بثّه بصورة متواصلة للمشاهدين والمستمعين والقراء، حيث تزايد الإعلام المتخصّص في نشر الكراهية، والتّحريض على العنف والإقصاء مع أطراف تدعم وسائله القائمة على نشرها، وتقوم بتمويلها وتغذيتها، وغايتها تخدير الشّعوب وتغييب وعيها، وإشغالها عن حالة الشّقاء والبؤس التي تعيشها، ويهدف إبقائها مجرد ببادق تتقاتل ليظلّ اللاعبون الرئيسيّون متحكّمين بمصيرهم في ظلّ غياب شبه تامّ للإعلام المهنيّ. وكثيراً ما ترتكب وسائل الإعلام أخطاء في إعادة نقل خطاب الكراهية وتدويره، وهو ما حدث إبّان الاعتداء على مسجد في نيوزلندا وغيرها، إذ لم تكتفِ تغطيات إعلامية آنذاك، بإيراد بعض مقاطع خطاب الكراهية، الذي استخدمه منقذ الهجوم عبر صفحته على موقع تويتر، بل أفردت بعض تلك التّغطيات كامل المساحة لنقل ما ورّد فيه من كلمات كراهية ممّن يؤيّدونه، وتنقل أخرى ما كتبه منقذ الهجوم على أسلحته وتبذل جهداً لافتاً في الإحالات التاريخيّة لحقبة مسلمي الأندلس، وهذا كلّ ينطوي على مخالفات مهنيّة جسيمة، لأنّ فيه تكريسا لما يريد أصحاب هذا الخطاب، من ترويج للفوضى والأحقاد، وأفعال قد تصل حدّ الإيذاء وإزهاق الأرواح، وحسبنا هنا تذكّر مجازر رواندا التي راح ضحيّة نشر الإعلام لخطاب الكراهية فيها عام 1994م حوالي 800 ألف قتيل خلال مئة يوم فقط، ليمثّل صحفيّون أمام محكمة الجنايات الدوليّة للمرة الأولى بهذه التّهمة.

لقد أمكن للتّقنية الإعلاميّة أن تتيح حشد النّشطاء، المطالبين بالكراهية عبر وسائل التّواصل الاجتماعيّ، وأن تُستخدَم هي ذاتها لأغراض التّنظيم والتّجنيد، وخاصّة في ظلّ تزايد أعداد الأشخاص المتّصلين بشبكة الإنترنت. وقد أصبحت هذه المنصّات قنوات تواصل حيويّة، يتيح لها التدفّق المستمرّ للتّبادل المعلوماتيّ الفوريّ وغير المنقّح، إمكانيّة استغلال هذه المعلومات، وتحويلها إلى سلاح تحريض العامّة، أو تضليلهم والتأثير عليهم عن قصد أو عن غير قصد، على نحو يؤدّي إلى عواقب خطيرة. ومن أكثر الاتّجاهات الباعثة على القلق، الوجود المتنامي لخطاب الكراهية على منصّات التّواصل الاجتماعيّ لاسيما أثناء الأزمات والأوضاع المتوتّرة على الصّعيد السّياسي أو الاجتماعيّ، بينما تمنح وسائل التّواصل الاجتماعيّ

قوة فاعلةً لحرية التعبير وتفسح المجال لتعالى أصوات التّعصب والتّحيز تحت نطاق حرية التعبير عن آرائهم، فثمة خطابات تدعو للعنصرية والتّحريض وتحقير الآخرين وتبث على وسائل الاتّصال.

وعادةً ما تؤدّي مشاعر عدم التّسامح، إلى توليد خطابات مفعمة بالكراهية، وانتشارها لتتضاعف وتتضخّم عبر قنوات التّواصل المتعددة، وتتردّد أصداً هذه الرّسائل عبر أنظمة التّواصل التناظرية والرّقمية على حدّ سواء، ولديها قدرة خاصّة على تأجيج جذوة التّوترات القائمة بين الجماعات المختلفة، وإشعال فتيل العنف، مما يؤدي إلى ارتفاع عدد الهجمات ضدّ الخصوم، ليتأكد بذلك ارتباط الخطاب التّحريضيّ عبر الإنترنت، وتنتشر خطابات الكراهية دون سقف في الفضاء الرقبي، كما يؤثّر استخدام الأدوات الرّقمية بهدف تشويه الحقائق ونشر خطابات مثيرة للفتن، تأثيراً قوياً على الأزمات والنزاعات، خاصة بعد عصر التّحوّل الرّقبيّ، وقد شكّلت تقنية الاتّصالات عبر الوسائل المطبوعة والمسموعة والمرئيّة قوى راسخة محرّكة للعنف، ويشهد التّاريخ الحديث على بعض الأمثلة المروعة في استخدام الدّعاية وخطاب الكراهية بما أسفر عن حدوث آثار مهلكة، ومن أشهر الأمثلة على ذلك: الإبادة الجماعيّة في رواندا والبوسنة والهرسك وغيرهما... (الوحش، 2017، خطاب الكراهية على المواقع الإخبارية الأردنيّة).

وغالباً ما تتسم الخطابات حول الآخر عموماً -بما فيها تلك التي تلتحف بلحاف الموضوعيّة العلميّة والترفع عن التّمرکزات العرقية والثّقافيّة- باختزاله في كيمّ من التّصورات الدّهنيّة القبليّة التي لا تحيل على حقيقته بقدر ما تكشف عن حقيقة الدّات الواصفة،

فخطاب الإعلام الاستعلائيّ تعبير فوقيّ، يكشف عن العقليّة الإقصائيّة التي يكرّسها الإعلام في معظم وسائله، حيث تكون له كلّ الفرص لممارسة أساليب التّضليل والتّشويه، موسّعاً بذلك دائرة الكراهية من خلال توظيف مصطلحات وعبارات تفتقد إلى أخلاقيّات الممارسة الإعلاميّة، وبلغة تحريضيّة لا تتردّد في نزع صفة الإنسانيّة عن الآخر، وإطلاق صفات وضيعة شنيعة عليه، وإبرازه كنموذج للتّعصب والتّطرف، ويبدو أنّ الأمر لا يقتصر على النّخب الإعلاميّة المحكومة بعقليّة التّسويق التّجاريّ البعيد عن شروط الممارسة المهنيّة الصّحفيّة؛ بل تعدّاه إلى نخب حاضرة في الفضاء الإعلاميّ. (سعيد إدوارد، 2011، 67-173).

ويبدو أنّ الإنترنت صارت مرتعاً خصباً لخطاب الكراهية، بسبب ما توفّره الشّبكة من إمكانيّة النّشر بأسماء مستعارة أو مجهولة، ولا يمكن حصر عدد الحالات التي ساهم فيها الإعلام، بل أصبح الفيسبوك وغيره من مواقع التّواصل الاجتماعيّ، مواقع خصبة للتّنمر والهجوم اللفظيّ، الذي يقع ضمن دائرة خطاب الكراهية، فقد سجّلت مثلاً جريمة في كلّ 40 دقيقة سنة 2012م، مرتبطة بمختلف مواقع التّواصل الاجتماعيّ، ويتعلّق جلّها بخطاب الكراهية.

ومع أنّ كلّاً من: غوغل وتويتير وفيسبوك ومايكروسوفت، قد وافقت من بتاريخ: 31/5/2016 على السلوك بحيث يشمل خطاب الكراهية، والذي ورد فيه: لا يُسمح بالمحتوى الذي يهاجم الأشخاص على أساس العرق أو الديانة أو غير ذلك، إلّا أنّها في الوقت ذاته سمحت بالتّعبيرات التي تُنشر على سبيل الدّعاية أو السّخرية من الأفراد والمعتقدات والتي يعتبرها البعض تهديداً أو هجوماً، فيتضمّن المحتوى مثلاً: النكات والأعمال الكوميديّة، والرّسوم المسيئة كالتي قُصد بها نبيّنا عليه الصّلاة والسّلام، وكلمات الأغاني الفاحشة،

والتهكم على جنس أو لون أو دين بعينه... وما إلى ذلك... غير أن التناقض يتضح سريعاً في تعريف فيسبوك لخطاب الكراهية، إذ السؤال المطروح: ما معيار التعبيرات الساخرة من التعبيرات الجدّية؟ فيقال لنا: إنّه بالطبع يعتمد على النوايا، لكنّ النوايا جانب خفي باطني، لا سبيل للوصول إليه أو التّحقّق منه حسب الدّراسات اللّغويّة في تحليل الخطاب، والتي تخبرنا بأنّ المتحدثين لا يرتدون نواباهم، أي أنّه لا يمكن معرفة النوايا من الكتابات على الفيسبوك مثلاً... إنّها مهزلة وضحك على الذقون.

5- منصات التّواصل الاجتماعيّ وتأثيرها الّلا-متناهي على خطاب الكراهية:

تساهم وسائل التّواصل الاجتماعيّ في نشر خطاب الكراهية بطرق متعددة، منها:

- نشر معلومات مضللة ومزيفة ووهمية.

- تهويل وتضخيم أشكال العنف، وتعمّد نشر المشكلات الاجتماعيّة.

- المساهمة في نشر العنف المجتمعيّ اللفظيّ بطرق مباشرة وغير مباشرة.

كما أوجد الفضاء الإلكترونيّ حرية مطلقة، بلا ضوابط أخلاقيّة ولا قوانين رادعة، وجعل أبواب تلك المواقع مُسرّعةً، تتسع لكلّ من يغدّي خطاب الكراهية والحقد على الآخر، وبطريقة مباشرة أو غير مباشرة أصبح الفضاء الاجتماعيّ والثقافيّ مهيباً لانتشار خطاب الكراهية، بل وأصبح هذا الخطاب الوسيلة الأولى من وسائل الاستقطاب السّياسيّ عبر وسائل التّواصل وشكلا لعنصر الأساس في تنامي الكراهية والّلا-تسامح في علاقاتنا الإنسانيّة والحضاريّة المعاصرة.

6- ازدواجيّة معايير الإعلام في تعامله مع خطاب الكراهية:

تستغلّ بعض الأطراف، حرّيّة التّعبير التي تصونها القوانين الدّوليّة، للاعتداء على كلّ شيء، فحتّى الخالق تبارك وتعالى، والرّسل والأنبياء والأديان، لم يسلموا من شرور هؤلاء الإعلاميين، ولعلّ الإشكالية المثارة هي حول حدود حرّيّة وسائل الإعلام في التّعبير وضوابطها.

- رصاصه شارلي إيبدو نموذجاً:

بموازاة الحديث عن قوانين المطبوعات التي تقيّد النّشر، خصوصاً في الإعلام الإلكترونيّ، ولأنّ الموقف من أيّ حدث يتبع لطرف ما، وكلّ هجوم على الخصم في القاموس، هو حرّيّة، سنلاحظ أنّ ذلك لا يعدو أن يكون امتداداً لخطاب الكراهية السّائد، وللتّمييز والإقصاء المتبادلين على أساس طائفيّ أو غيره... يضاف إليه الكمّ الكبير من الأذى اللفظيّ المتعمّد، وانتهاك خصوصية الأفراد والجماعات. وليس البحث في حدود حرّيّة التّعبير بحثاً مستجدّاً، خصوصاً أنّ كلّ التّشريعات في العالم، تكلمت عن عقوبات الدّم والتّشهير والتهديد، سواء كان كلاماً أو كتابة، وفي حالات كثيرة، يخشى المدافعون عن حرّيّة التّعبير، أن تستخدم تلك التّشريعات كأداة لقمع الأصوات المعارضة، أو لارتكاب ملاحقات كيديّة بحقّ أفراد أو مجموعات ما كما حدث مع الصحفيّ خاشقجيّ مثلاً... وتشكّل مجزرة قتل صحافيّ ورسميّ مجلة "شارل إيبدو" الفرنسيّة عام 2015 محطة مفصليّة في النقاش حول إشكاليّة حرّيّة التّعبير، وخطاب الكراهية في العصر الرّقميّ، فمن

أطلق النَّارَ على رسّامينٍ مثيرين للجدل، -اتّهمت مجلّتهم في مناسبات عدّة بتبني خطاب عنصريّ ضدّ المسلمين- فتح برصاصته الباب على نقاشٍ واسع، ودفع المعنّيين للتّفكير بأبعاد تلك السّخرية، وتحدّث عن الحدود الفاصلة التي تتقاطع فيها حرية التعبير وخطاب الكراهية، وتحدث عن هذه المواقع باعتبارها أهمّ مواقع التواصل الاجتماعيّ حاليّاً. (معتوق وكريم، 2012م).

7- حرّية التّعبير: أبرز أدوات صناعة الكراهية:

تمثّل حرّية التّعبير حسب اليونسكو حقّاً أساسيّاً بنصّ المادّة: 19 من الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان، لكن متى يمكننا اعتبار خطاب ما منطويًا على كراهية؟

إن السّياق الذي يبيّ فيه الخطاب، هو الذي يحدد مدى إمكانيّة اعتباره خطاب كراهية أم لا، فنشر الكذب والافتراءات، والتّلاعب بالعقول وتزوير الحقائق وتزييف البيانات، كلها أسلحة تنتمي إلى الجيل الرابع، وتفتك ببنية المجتمعات، وهي لا تكلف الدّول مالاً ولا جهداً. ويدور الحديث في الدّول الغربية حول خطاب الكراهية في سياق مقارنته بحرّية التّعبير، حيث تجرّم بعضها استخدام تصريحاتٍ أو رموز عنصريّة بعينها؛ لكن في عيون قضاء الأنظمة "الديكتاتورية"، ترتبط حرّية التّعبير وحقّ إبداء الرّأي بخطاب الكراهية، ففي البلاد العربيّة مثلاً تهدر حقوق أساسيّة، مثل: الحقّ في الحياة والحرّية والمساواة والكرامة... وفيصنّف حديث من يطالب بهذه الحقوق ضمن دائرة خطاب الكراهية للسلّطة الحاكمة. ولعلّ الثّغرة الكبرى حتّى هذه اللّحظة، هي غياب القوانين الرّادعة، إذ لا يوجد نصّ قانوني يرسّي أطراً واضحة لخطاب الكراهية، ويفرض عقوبات عليه؛ بل والأخطر في كتابات هؤلاء الإعلاميين أنّها تتوقّف على وسائل تسويقية ودعائية هائلة، تتمثّل في وسائل الإعلام الحديثة، بترسانتها التّقنيّة الهائلة التي مكّنتها من الوصول إلى أكبر عدد من الأفراد، فوسائل الإعلام تأثير بالغ في تشكيل تمثّلات الجماهير، وتشكيل رؤاهم للأشياء والأحداث والأفكار؛ إلّا أنّنا في نفس الوقت لا نقلّل من الأثر الذي تحدّثه هذه الوسائل في أذهان الأفراد، خاصّة فيما يتعلّق بمواضيع ذات حمولة إيديولوجيّة، وقيميّة كبيرة متمثّلة في بعديها الفكريّ والعربيّ.

8- وسائل الإعلام الغربية والتّحريض على خطاب الكراهية:

شكلت وسائل الإعلام أداة مهمّة لنقل خطاب الكراهية، فأصبح يُستخدم كامتداد للمعارك التي تدور رحاها على أرض الميدان وفي ساحات القتال، حيث جعلت من: فيسبوك وتويتير ويوتيوب وتليجرام وغيرها... ساحات رئيسة لها، ذلك لأنّ تأثيرات الإعلام الرّقميّ السّلبية في حالة التّزايدات المسلّحة، أشدّ وطأة وأكثر تأثيراً -كما تقدّم- في تأجيج التّزايد، وبثّ خطابات الكراهية والتّحريض على العنف، ومثاله ما يحدث الآن للمسلمين في فلسطين والصّين وميانمار والهند وغيرها... من تهجير وإبادة، انه مثال صارخ على إثارة الإعلام الغربيّ للتوتّرات العرقية والدينيّة، والجميع يعلم أنّ فيسبوك وغيره من منصّات الاتّصال الغربيّة، بمثابة امتداد لساحة القتال التي يجب عليهم التّفوّق والفوز فيها بالمعركة. كما تعتبر صناعة الكراهية إحدى أهمّ الأسلحة المستخدمة في الحروب النّفسيّة، بل وأهمّ أدوات نظام تفكيك التماسك الاجتماعيّ، فالحروب العسكريّة تستهدف حياة البشر وممتلكاتهم المادّيّة، في حين تستهدف الحروب النّفسيّة السلوك الاجتماعيّ

والنّفسيّ للتأثير عليهم، فهي تصنع الكراهية عبر نشر الأكاذيب وتزوير الحقائق، والتلاعب بالعقول والافتراء على الآخرين، ثم تتحوّل الكراهية بعدئذ إلى أفكار وعقائد؛ قبل أن تصبح سلوكاً عدوانياً عنيفاً، فمثلاً: كانت جرائم الإبادة الجماعية في رواندا قائمة على خلفية التحريض الإعلاميّ الروانديّ، وعلى خطابات الكراهية التي بثتها وسائل الإعلام باستمرار لتعزيز أفضلية طبقة الهوتو على التوتسي، ومعظم الشعوب تستمع وتقتنع لما يقوله إعلام حكوماتها.

لذا تجد هذه الصناعة أسواقاً إعلامية تروّج لها كثير من الدّول بل هي صناعة تحظى برعاية الأنظمة المستبدّة التي تمتلك مشاريع جيو-استراتيجيةّ وغطائها لتحقيق أهداف سوسيو-سياسيّة، ويشكّل ما تقوم به الأنظمة الاستبداديّة بشكل ممنهج مناخاً مناسباً لتنامي خطاب الكراهية، ويلجأ المنتقدون في السّلطة إلى تطويع وسائل الإعلام لصالحهم بغية إسكات أيّ انتقاد، فالمسؤوليّة-هنا- تقع على الدّولة لامتلاكها وسائل الإعلام كما تقع على الإعلاميين المشاركين لهم في جرائمهم، وهو في مجمله إعلام ذو إنتاج اختزاليّ متحيّز في رؤيته ومتأثر بعقليّة الإقصاء والاستعلاء واختصار الآخر في مجموعة من الكليشمات والمطيات، إنّها ثقافة "قبليّة" منمّطة عن الآخر، تعاد صياغتها وفق وحدات ذهنيّة تفرغه من حقيقته، وتصنع له وجوداً متناسقاً ومتناغماً مع رؤيتها له؛ وتفرض القبليّات نفسها كأساس "معرفي" في تصوّر الآخر، وهو بعد هذا يغلب عليه الطابع السّجاليّ "المواجهاتي" ذي النزعة الإقصائيّة.

9- نماذج صناعة الكراهية ومستوياتها:

إنّ الجانب الأسوأ للكراهية هو التّحريض الإعلامي على العنف، ليصبح في صورة حروب وجرائم ضدّ الإنسانيّة، والدّول الغربية الاستعمارية، مثلاً، عملت على تلطّيح صورة المسلم وعززت صورة التّطرّف في إعلامها ممّا أحدث ما يعرف بظاهرة الإسلاموفوبيا، كما توجد صناعة الكراهية داخل البلد الواحد بهدف إشعال الفتن والصّراعات في ظلّ حالة الجهل التي تحكم واقع المجتمعات. وفي القارة الأمريكيّة التي وصلها المستكشف كولومبس ارتكب الأوروبيون جرائم إبادة وحشيّة بحق السّكان الأصليين-الهنود الحمر- وبحقّ السّود وغيرهم، ويزعم إعلامهم أنّهم قاموا بتحريرهم ودعمهم، وهذا تماماً ما يكشف زيف قيام أميركا وأوروبا على قيم العدالة والمساواة والحرّيّة. وفي البوسنة والهرسك ارتكب الصرب أفظع المجازر في أوروبا بعد الحرب العالميّة الثّانية لأسباب دينيّة وعرقية تتعلّق بالكراهية، إنّها مجزرة ذهب ضحيّتها أكثر من ثمانية آلاف مسلم بوسني سنة 1995، وقد حصلت على مرأى من وسائل الإعلام العالميّة وقوّات حفظ السّلام الأمميّة.

10- صور لأشكال الكراهية المتداولة عبر وسائل الإعلام:

- تشويه الحقائق أو تكذيبها.
- النظرة الدونية للآخرين بسبب الاختلاف في اللون أو الدين أو المذهب أو الجنس أو...
- كراهية قيم الآخرين واحتقارها وإقصائهم
- عدم القبول بالاختلاف مع الآخرين.

11- الآثار الناجمة عن انتشار خطاب الكراهية:

- يطرح خطاب الكراهية مخاطر جسيمة حيث أنه يضعف المجتمعات ويدمرها، كما أنه:
- يعمل على زرع بذور الخوف والكراهية وانعدام الثقة.
- يقتل روح الإبداع في المجتمع مع هجرة الكفاءات.
- يفقد المجتمع تماسكه الداخلي فيصبح ضعيفا أمام الأزمات.
- يهدد وحدة النسيج الاجتماعي ويقسم المجتمع إلى جماعات غير متجانسة.
- يساعد على انتشار التطرف والعنف داخل المجتمع.

12- قوانين مكافحة خطاب الكراهية:

شملت قوانين الإعلان العالمي لحقوق الإنسان نصوصا عديدة تمنع استخدام عبارات الإهانة والإساءة للأفراد والجماعات، ولعلّ أبرزها ما ورد في الفقرة 2 من المادة 20 من العهد الدولي الخاصّ بالحقوق المدنية والسياسية، إذ تُحظر بموجب القانون أيّ دعوة إلى الكراهية القومية أو العنصرية أو الدينية أو أي دعوة تُشكّل تحريضا على التمييز أو العداوة أو العنف... كما ورد في مادته الثانية: نصّ على حقّ الفرد في التمتع بكافة الحقوق والحريات دون أيّ تمييز بسبب اللون أو الجنس أو الدين أو أيّ تمييز لسبب آخر... وأكد الإعلان على أنّ كلّ الناس سواسية أمام القانون، كما جاء في نصوص المادتين 7 و19 من قوانين العهد الدولي للحقوق السياسية والمدنية ضبطاً لما شملته حرية التعبير، وهو أنّ أيّ دعوة إلى الكراهية القومية والعرقية والدينية... تشكّل تحريضا على التمييز والعداوة والعنف، ثمّ جاءت المادة 20 لتحظر بشكل مباشر أي دعوات تحريضية أو عنصرية أو كراهية.

1- تحظر بالقانون أيّ دعاية للحرب

2- تحظر بالقانون أيّ دعوة إلى الكراهية القومية أو العنصرية أو الدينية.

3- كلّ دعوة إلى الكراهية القومية، أو العنصرية تشكّل تحريضا على التمييز.

وعلاوة على ذلك، ميّزت هذه الاتفاقية بين التمييز العنصري (Racial discrimination) وخطاب الكراهية العنصري (Racial hate speech)، ووفقا للاتفاقية الدولية للقضاء على أشكال التمييز العنصري، فإنّ كلّ نشر للأفكار القائمة على الكراهية العنصرية وكلّ مساعدة لأنشطة عنصرية أو تمويلها، يعتبر جريمة

يعاقب عليها القانون. وقد قامت مفوضية الأمم المتحدة بتمويل مؤتمرات لمناقشة مدى انطباق حرية التعبير على فضاء الإنترنت، وشاركت منصات: غوغل ومايكروسوفت وفيسبوك وتويتر في مدونة السلوك، حيث التزمت جميعها بمراجعة المحتوى المنشور إن كانت تتضمن خطاب كراهية، وكذلك مختلف الإشعارات والخدمات المعروضة عبر صفحاتها ومواقعها ووعدت بإزالتها في مدة لا تقل عن 24 ساعة. (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ووثائق الأمم المتحدة، العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية). (<https://goo.gl/dwRNIC>).

وتطلبت التشريعات الموضوعية لحماية النظام العام في كثير من البلدان حدوداً أعلى في حال انتهاكها، لذلك لم يتم تطبيقها بصورة منضبطة في أكثر الحالات، فمثلاً: لم يُحاكم في أيرلندا الشمالية بحلول عام 1992 سوى شخص واحد بتهمة خرق تشريع من هذا القبيل، أما حدود تطبيق القوانين الموضوعية لحماية الكرامة الإنسانية، فهي أدنى بكثير من قوانين النوع الأول، فعادةً ما يجري تطبيقها في بلدان مثل: ألمانيا والدنمرك وكندا... وبما أن تعريف خطاب الكراهية ليس معقداً فحسب، بل هو مثير للجدل أيضاً، ونظراً لاستخدام مصطلحات متحيزة مثل: العرق واللون والفئة والدين... فقد أضحت كلمات مطاطية، تتيح للتفسيرات المختلفة والمتناقضة أن تضيق وتتسع بحسب تقدير كل فئة وحكومة وجماعة، ومع عدم توافر تعريف قانوني دقيق لـ"خطاب الكراهية"، فقد برزت في هذا السياق إشكالية تتعلق بالمعطيات التي تجعل منه جريمة يعاقب عليها القانون، خاصة في ظلّ تداخلها مع مصطلحات أخرى مثل: حرية التعبير.

13- المعايير التي يتم من خلالها تجريم خطاب الكراهية:

لتقييم مستوى الكراهية، وكمحاوله للوصول إلى فهم شامل لظاهرة خطاب الكراهية في وسائل الإعلام، يؤخذ الحكم على الخطاب وطبيعته من منظور سلوكي ومن ثم التفكير في عواقبه المحتملة، لكن ما يلفت الانتباه هنا، هو الحد الأعلى الذي قد تصل إليه هذه السلوكيات لأن الخطاب قد يتحوّل إلى فعل إجرامي يهدد الحياة، وتأتي تلك المعايير التي يتم وفقها تجريم خطاب الكراهية إذا توفر في أحدها الآتي:

- 1- التحريض على العنف.
 - 2- التحريض على التمييز.
 - 3- التحريض على العداوة. (خطابات الكراهية، مركز هردو لدعم التعبير الرقمي، القاهرة، 9، 2016)
- ويمكن تطبيق إطار الحظر على خطاب الكراهية إذا توقرت فيه ثلاث صور:

سياق التعبير:

نعني بالسياق التاريخي النظر في وضعية الذين يوجّه الخطاب ضدهم، وما إذا كانت هناك صراعات تاريخية أو معاملة عنصرية ضد هؤلاء الأفراد أو تلك المجموعات، فيمكن الحكم من السياق على مدى خطورة التحريض وأثاره، وعلى سبيل المثال: التحريض داخل دولة كجنوب إفريقيا على التمييز العنصري، والتي لها تاريخ من العدا ما بين ذوي البشرة السمراء والبيضاء.

قائل التعبير أو المتحکم في انتشاره:

يعني ذلك تقاسم صاحب السلطة ومقدار تأثير صاحب التعبير في الجمهور، فإذا كان شخصية عامة أو يشغل منصبا هاما ونحوه، فإنّ دعوته أو تعبيره يحتملان انتشارا واسعا بين الجمهور، وهذا له أثره، كما يمكن قياس درجة وعي قائل أو كاتب التعبير ومدى خطورته.

نية قائل التعبير:

يمكن اعتبار التعبير تحريضا، إذا ذهبت نية صاحبه إلى التحريض على العنف والكرهية أو دعوته إلى أعمال تمييزية. فعنصر النية من الأمور التي يصعب إثباتها ما لم يعترف بها صاحبها، لذا ذهب القانون إلى وضع محددات وقرائن للاستدلال على نية الفاعل، واستقرّ قضاء حقوق الإنسان على محددات هي لهجة صاحب التعبير وهدفه منه وتكراره له لإثبات نواياه التحريضية من عدمها.

محتوى التعبير:

وهنا يجب فحص محتوى التعبير بربطه بقائله وبالفتنة الموجه له أو الموجه ضده أو نطاق التعبير، وهل استخدم التعبير لهجة عنيفة مباشرة، وهل كان المحرّض واضحا بشكل مباشر أو غير مباشر، مع مراعاة أنّ بعض الخطابات لا يمكن تطبيق معايير التحريض عليها، مثل: التعبير الديني والفنيّ والأبحاث العلمية والحملات الانتخابية أو المناظرات السياسية...

حجم التعبير وقدرته على الانتشار:

لكي يتم اعتبار التعبير تحريضا، يجب أن يتمّ توجيهه لجمهور بشكل مباشر وعلنيّ، لذا فقد وجّهت أمام دائرة الاستئناف عام 2007م تهمة ارتكاب الإبادة الجماعية والجرائم ضدّ الإنسانية لمحرّر مجلة "كانغورا" ومالكها والتي خصّصت أو وظّفت للكرهية ونشر رسوم كاريكاتورية ومقالات مثيرة للكرهية عن نساء التوتسي، تدعو إلى تفضيل طائفة الهوتو على التوتسي، لهدّ أعدت المحاكمة الأولى تقريبا في القانون الدوليّ التي عاملت الخطاب التحريضي تحت اسم: "إعلام الكراهية" لكونه يمثل جريمة ضدّ الإنسانية (مركز هرد ولد عم التعبير الرقعيّ، القاهرة، 2016، 10-11).

وإجمالاً، تعتبر علاقة وسائل الإعلام بالآخر علاقة دونية، وهذا ما يبرزه خطاب الكراهية الصّادر عنها اتّجاه الآخر، بمعنى أنّه يحتلّ موقعا دونيا مقارنة بالإنسان الغربي، وهذه الدونية ثلاثية الأبعاد، فهي: عقلية، أخلاقية واقتصادية.

14- احتدام الجدل حول مشروعية تجريم خطاب الكراهية:

يمكننا في هذا الإطار أن نطرح الأسئلة التالية: كيف نستطيع تحقيق التوازن بين حرّية التعبير وخطاب الكراهية؟ أو ما هي الحدود الفاصلة بين حرية التعبير وخطاب الكراهية؟

ثار جدال حول مشروعية تجريم خطاب الكراهية نظرا لانعدام الاتفاق على تعريف محدّد له ليشكّل إطارا أو نطاقا للحظر القانوني، وحول مدى تعارض مفهومه الواسع مع حرّية التعبير المكفولة بالمواثيق

الدولية المحمية بموجب القانون الدولي من خلال المادة 19 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وقد اقتصر خطاب الكراهية على ما يمكن أن يسمى اليوم "خطاب العنصرية" الذي يغطي جميع أشكال التعبير التي تنشر أو تحرّض أو تشجّع... ككره الأجانب ومعاداة السامية أو اضطهاد الأقليات والمهاجرين ونحوها... وكافة أشكال الكراهية لتشمل كلّ محتوى ينشر ويبرّر أو يحرض على الكراهية العرقية ومعاداة المهاجرين، وكلّ الأشكال الأخرى لها والقائمة على عدم قبول الآخر فحسب، لتستغلّ دول وجماعات هذا المفهوم الفضفاض لتمرير قوانين تحدّ من الحرّيات العامة، ولتصبح قوانين مواجهة خطاب الكراهية ومكافحة الإساءة أدوات بيد هؤلاء الذين يقيدون الحرّيات من جهة، ويتلاعبون بمصطلحي: حرية التعبير وخطاب الكراهية كيفما أرادوا.

ساهمت وسائل الإعلام بشقّي أشكالها وأنواعها في صناعة هذا الخطاب ولا تزال تساهم فيه، وتحوّلت إلى منصّات مملوكة بيد فئات معينة تخدم مصالحها فقط، ونظرا لغياب المسؤولية القانونية التي يمكن أن تتحمّلها هذه الوسائل إزاء نشر كلّ ما له علاقة بهذا الخطاب، ولسهولة صناعة الحسابات والصفحات المفبركة ثمّ إغلاقها أو تركها دون أن يتمكّن أحد من معرفة من يقف حقيقة وراءها.

15- مناهضة الإسلام لخطاب الكراهية:

حثّ الشّرع الإسلامي على انتقاء الألفاظ الطيّبة الحسنة والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وقولوا للنّاس حسنا﴾ (سورة البقرة، الآية: 83) لتشمل جميع النّاس حتّى المخالفين في العقيدة، إضافة إلى النهي عن الكلام القبيح حتّى للكفّار، إذ يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة العنكبوت، الآية: 46) ويدخل فيه التّزاهاة في القول، فلا يكون فاحشا بذينا عند مخاطبة الآخرين، وينبغي للمسلم أن يتخيّر الكلمة الحسنة، لأنّه مأمور بذلك، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ (سورة الإسراء: 53)، ويؤيّد ذلك ما ذهب إليه المؤرخ والراهب الفرنسي جوزيف ميشود في كتابه: "تاريخ الحروب الصليبيّة" و"رحلة دينيّة في الشّرق" من أنّ القرآن الذي أمر بالجهاد، متسامح مع أتباع الشرائع والمعتقدات السابقة، وقد ألقى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضّرائب، وحرّم محمّد-عليه الصّلاة والسّلام- قتل الرهبان عند عكوفهم على العبادات، ولم يمسّ عمر بن الخطّاب النّصارى بسوء حين فتح القدس في حين ذبح الصليبيون المسلمين وحرّقوا اليهود بلا رحمة عندما دخلوها، "ومن المؤسف أن تقتبس الشّعوب النصرانية من المسلمين التسامح، الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين." (غوستاف لوبون، 137، 138-2013)، لذا يمكننا أن نتساءل: كيف ولماذا؟ ومن ذا الذي يُعديّ خطاب الكراهية في وسائل الإعلام ضدّ الإسلام والمسلمين؟

تسبب خطاب الكراهية في عدد من الكوارث والأزمات التي يعاني منها العالم، والإعلام يتحمّل جزءا كبيرا من مسؤوليّة انتشار هذا الخطاب؛ بل وصلت درجته في وسائل الإعلام إلى حدّ التّطاول على المقدّسات الدّينيّة وعلى الله عزّ وجلّ، وعلى رسله عليهم الصّلاة والسّلام، ووسائل الإعلام المختلفة هي التي تساهم في نشر الكراهية (إدوارد، 2011م، 37-39)، وقد حدث مثلا عام 2012 أن قام أحدا لأشخاص في الو.م.أ

بنشر فيديو لفيلم بعنوان: "براءة المسلمين" على موقع يوتيوب، يحمل إساءة بالغة للرسول عليه الصلاة والسلام، وتسبب هذا الفيديو في أعمال عنف معادية للو.م. أ. فيدول إسلامية راح ضحيتها أكثر من 11 قتيل كان من بينهم: "ستيفينز" سفير أمريكا في ليبيا. (زهرة، 2011م)

15- السبل المثلى للتعاطي مع خطاب الكراهية وآليات مواجهته:

أعجبتني حملة تنفيذ الأساطير التي تنفذها إحدى المنظمات في أوروبا تحت عنوان: "اختر الاحترام"، وهي تتصدى للأساطير حول المهاجرين وتهدف إلى ما تصفه بكسب "المعركة الأخلاقية"، وتكمن إحدى أخطر أدوات نشر الكراهية في نشر الأكاذيب والافتراءات والتلاعب بالعقول وتزوير الحقائق، وبات هذا الأمر صناعة ضخمة تنفق في سبيلها المليارات من الدولارات، ليس فقط لاستهداف الحكومات والدول... بل كذلك استهداف القيم الإنسانية والأخلاقية.

يحتاج تصاعد هذا الخطاب في كثير من مناطق العالم إلى رؤية ثاقبة بعيدا عن المثالية، لمواجهته وامتلاك حرية الحركة والآليات المواجهة المتوقعة عبر وسائل الإعلام البديل، للتصدي له كخط دفاع أول عن قيم الإنسانية، والإعلام بشقيه: البديل والتقليدي وبكل وسائله، قادر على تفكيك خطاب الكراهية ومواجهته وتثبيت أسس خطاب التسامح وقبول الآخر، (إدوارد، 2011م، 67-173)،

وثمة طرق عديدة لمناهضة خطاب الكراهية في وسائل الإعلام ومن بينها:

تقبل الآخر مهما كان مختلفا، تطبيقا لمبدأ التسامح، لأنه لا يعقل أن يعاتب الآخر على نمطية أفكاره وتبني الذات موقفا مغايرا لذلك، وعدم اختزاله كما يفعل هو في مجموع صور نمطية مشوهة.

الآخر ليس هو العدو في كل الأحوال، ولا هو الجحيم بالتعبير الفلسفي، لذا يجب أن نحرص على تنقية التراث الثقافي من عناصر الإقصاء والتهميش للآخر وعناصر الطائفية والعنصرية ضده.

شروط العلاقة السليمة بين الأنا والآخر هو هذا الإدماج أو الإقحام للآخر في الأنا عبر تجربة الصداقة والتعاطف والحب. بناء على هذا المنطق التركيبي، لا تقوم الصداقة على التباين المطلق أو التماثل المطلق، وإنما هي تركيب من التماثل والتباين.

صياغة رسالة جماعية ذات معالم واضحة، قادرة على مخاطبة الآخر، وإقناعه بعيدا عن الخطابة الإنشائية ولغة التقرير والإقصاء.

إدراك أن صناعة الكراهية، وإن كانت تتجلى أكثر مما تتجلى في الخطاب الإعلامي، إلا أنها مسألة ثقافية بالأساس ولذلك فإن "المعركة" الحقيقية ليست مع تنميطات الوسائط الإعلامية، بقدر ما هي بنية ذهنية تحكمها تراكمات كبيرة. وعليه فإن العمل على الحد منها يتطلب العمل على أكثر من جهة، نذكر منها: الإعلام، المؤسسة التعليمية، مؤسسات المجتمع المدني، مراكز البحوث... وغيرها.

تنظيم منشورات وسائل الإعلام وضبطها، لأن أشهر القنوات تمرر خطاب الكراهية من خلالها، مما يجعل من تنظيم استخدامها ونشر التوعية الأخلاقية حول الخطاب المستخدم فيها ضرورة لا ترفا.

ضرورة وضع حد فاصل وواضح، بين مصطلحي: "حرية التعبير وخطاب الكراهية".

الإبلاغ عن منشورات وسائل التواصل الاجتماعي التي تنشر الشائعات والمعلومات الخاطئة. حظر المواقع الإعلامية الداعية إلى خطاب الكراهية وإجبارها على الكشف عن هوية الأشخاص الذين يستخدمون هذا الشكل من الخطابات.

تشجيع الباحثين والمؤسسات المعنية للقيام بأبحاث ودراسات علمية لرصد أفكار الكراهية في وسائل التواصل وسلوكها، وتحليل الظاهرة ومقارباتها.

تحديد المسؤوليات الخاصة بمرتكبي خطاب الكراهية ومزودي خدمات الإنترنت والمواقع الإلكترونية ومنصات التواصل الاجتماعي ممن يضطلعون بدور الناشر والمروج لها ومعاقبتهم.

ضرورة وضع إستراتيجية لوسائل الإعلام في كيفية التعامل مع معتقدات الغير، مع إعادة النظر فيما يسمّى: "نظرية الحرية الإعلامية".

الحوار مع الآخر، والاستماع الواعي الحقيقي لأقواله وآرائه، لأنه وسيلة التواصل الحقيقية وهو سبيل التعايش والاعتراف بالآخر، المختلف والمغاير وجوداً ورأياً وحقوقاً. (محفوظ، 2012، 60).

إدراك أنّ الآخر يفكر بطريقة مختلفة، ويوظف مفاهيم ومصطلحات مغايرة، أو أنّه يستخدمها بطريقة مختلفة، وعليه فإنّ الوصول إليه يتمّ عبر استيعاب الأبعاد النفسية والثقافية التي تشكّل رؤيته وسلوكه.

تستدعي مسألة حرّية التعبير الانتقال إلى الضفّة الأخرى، ومعرفة كيف يتمثلها الآخر غير الغربي، ويمكن عقها الحديث عن تحويل مسارها من أداة للقذف وإلحاق الأذى إلى عامل للإبداع والفكر.

16- خاتمة:

رغم اتّساع دائرة الحديث عن قيم التسامح وقبول الآخر، إلّا أنّ الناظر لواقع العلاقة مع الآخر، يلحظ النظرة الاستعلائية الغربية مهيمنة على أغلب وسائل الإعلام، وهنا تكمن "المفارقة"، إذ يخيل إلينا أنّه كلّما اتّسعت دائرة الاتّصال ضاقت دائرة التواصل، خاصّة بين الفضاءين الغربي والآخر -يعني المسلم-. ولنتمكّن من استيعاب هذه "المفارقة" وفك رموزها، وجب علينا الرجوع إلى التاريخ لأنّه في اعتقادي أفضل معين على استجلاء كثير من حقائق الأمور وكشف خباياها، فالقراءة المستفيضة والمتأنّية للرؤية الغربية لغير الغربي عموماً وللمسلم خصوصاً منذ العصور الوسطى إلى الوقت الحاضر، تظهر لنا أنّها رؤية خطيّة (Linéaire) في مجملها، أحادية اختزالية، تليفقيّة، والأهمّ من ذلك هي لاهوتيّة، حتّى وإن ادّعت غير ذلك، وهي لا تزال مؤطّرة لرؤى الأفراد والمؤسسات وتصوراتهم.

إنّ صناعة الكراهية لا تزال مزدهرة وتتجاوز عائداتها السنويّة ملايين الدولارات، ولا بدّ من إدراك أنّها - وإن كانت تتجلّى أكثر مما تتجلّى في الخطاب الإعلامي- مسألة ثقافية بالأساس، ولهذا فإنّ المعركة الحقيقية ليست مع تنميّات الوسائط الإعلامية بقدر ما هي مع بنية ذهنيّة تحكمها تراكمات تاريخيّة متتالية، وعليه فإنّ الحدّ منها يتطلّب العمل على أكثر من جهة، ونذكر على سبيل المثال: الإعلام، مراكز البحوث، القانون... وبما أنّه لا يمكن فصل جوهر المشكلة عن النواحي الأخلاقية والدينية، فإنّه تقع على عاتق الإعلاميين مهمّة

البحث الجاد لفهم دوافع تلك الكراهية المتمثلة في نشر الإعلام لخطابات مسمومة باسم حرية التعبير. وإنّ التعايش والتسامح لن يتحققا إلاّ بنبذ كافة أشكال الكراهية ومظاهرها، ومن واجب الجميع العمل على وقف خطابها بأمرين: أحدهما توعويّ والآخر قانونيّ، لأنها لا تزال بعيدة عن السّاحات التي ينتشر فيها هذا الخطاب ويتمدّد، وقد بقيت حبيسة لقاءات المثقفين وحواراتهم التي تصنع تأثيرا مباشرا وبدرجات متفاوتة على صنّاع القرار السياسيّ في دولهم، لذلك لا نرى تأثيرا مباشرا لهم في الرّأي العامّ، سواء في إعلام دولهم أو في إعلام المجتمعات التي يتمدّد فيها خطاب الكراهية، وبذلك تبقى المساحة كبيرة بين الواقع الذي يتمدّد فيه خطاب الكراهية والقرارات الحكوميّة التي تمنع انتشاره على استحياء، وهكذا يظلّ التساؤل الأهمّ مطروحا: كيف يمكن مواجهة مضامين الكراهية التي تروّج لها بعض وسائل الإعلام؟ وما سبل التصديّ للخطاب الإعلاميّ الموبوء بالكراهية على الآخر؟ فهذا هو سعارُ وسائل الإعلام بتأجيجها المتنامي لخطاب الكراهية، الشّبيه بسعار "أمّ أنمار" وتلك حكاية أخرى من تراثنا المجيد وتاريخنا التّليد.



المراجع:

- 1- الرّحامنة (ناصر): "خطاب الكراهية في شبكة الفيسبوك في الأردن" دراسة مسحية قُدّمت كرسالة للحصول على درجة الماجستير في الإعلام، قسم الصحافة والإعلام، كلية الإعلام، جامعة الشرق الأوسط، 2018، الأردن.
- 2- زهرة (وليد حسني): "إني أكرهك"، "خطاب الكراهية والطائفية في إعلام الربيع العربي"، مركز حماية الصحفيين وحرّيتهم، عمان، 2014.
- 3- سعيد (إدوارد): "تغطية الإسلام"، ترجمة. محمّد كرزون، دمشق، دار نينوى للأبحاث، 2011.
- 4- لوبون (غوستاف): "حضارة العرب"، ترجمة. عادل زعيتر، مؤسّسة هنداوي للتعليم، القاهرة، 2013.
- 5- محفوظ (محمّد): "ضدّ الكراهية من أجل تفكيك خطاب الكراهية في العالم العربي"، المركز الإسلاميّ الثّقافيّ، بيروت، ط؟، 2012.
- 6- محمّد (أحمد سعد): "كفانا فرقة، معا ضدّ إعلام الكراهية"، كلية الآداب والعلوم، قسم: الإعلام، مشروع تخرّج، خريف: 2016م.
- 7- معتوق (جمال) وكريم (شريمهان): "دور شبكات التواصل الاجتماعي في صقل سلوكيات وممارسات الأفراد في المجتمع"، ملتقى دولي حول شبكات التواصل الاجتماعي والتغير الاجتماعي، 2012، بسكرة- الجزائر.
- 8- مرصد الإعلام في شمال إفريقيا والشرق الأوسط: "رصد خطاب الكراهية في عينة من الصّحف المغربية المكتوبة"، 2015.
- 9- مركز هردو لدعم التعبير الرقمي: "خطابات الكراهية: وقود الغضب نظرة على مفاهيم أساسية في الإطار الدولي"، القاهرة، 2016.

مقالات إلكترونية:

- 1- دروس من رواندا: "برنامج التوعية بجرائم الإبادة الجماعية في رواندا"، رابط: <https://goo.gl/clx>
- 2- نصّ: "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان المنشور على موقع الأمم المتحدة"، وثائق الأمم المتحدة، رابط: <http://www.un.org/ar/documents/udhr/index.shtml#a>